بريد الجمعة

ثراء المعارف الرقمية

بريد الجمعة

الجمعة ١٣ فبراير ١٩٩٨

يكتبه: عبد الوهاب مطاوع

ذبول الابتسامة!

أنا فتاة في الثالثة والعشرين من عمري تخرجت منذ عامين في كلية وابي شقيقان يكبرانني يعمل كل منهما في عمل مهني ممتاز، أما أبي وأمي فهما يشغلان مركزين مرموقين أيضا في عملهما.

وقد بدأت تجربتي مع الحياة التي دفعتني لان اكتب لك هذه الرسالة وانا مظلة في العاشرة من عمري، حين إنتابتني ذات يوم اعراض مرضية شديدة، انتهت بي إلى الغيبوبة، وافقت منها فوجدت نفسي في المستشفى، وامي تبكي بحرقة الى جواري وابي واجم وحزين، والعمائل محلقة فوق رأسي وتمتد أنابيبها إلى ذراعي النحيلة، وادركت انني مريضة بمرض كان جديدا على معارفي وقتها اسمه السكر.. مع ان احدا من أسرة أبي أو امي لم يكن مريضا به، وتقبلت اقداري بصبر وامتثال، وحافظت على تنفيذ تعليمات الاطباء بدقة بالرغم مما كانت تعنيه بالنسبة لطفلة مثلي من حرمان من أشياء طفولية جميلة وتحملت بصبر وخز الابر اليومية لحقن الانسولين وكففت عن الشكوى من اي شيء وتواءمت مع ظروفي وواصلت الحياة والدراسة في تفاؤل واستبشار بالغد، واعانني على ذلك ان حالتي الصحية قد استقرت تماما منذ زمن بعيد ولم اعد اشعر بأنني اختلف في شيء عن اية فتاة اخرى، وحظيت دائما بحب ابي وامي واخوي وبانالهم جميعا أصدق مشاعر الحب والود والعرفان، ومضت الايام بي جميلة وسعيدة وواعدة إلى أن بلغت عامي الجامعي الأخير، وتقدم لخطبتي مهندس زميل شقيقي الاكبر ورحبت به اسرتي ورحبت انا ايضا به، واردت أن اصارحه بحقيقة أمري قبل اتمام الخطبة لكن ابي منعني بحزم من ذلك ونصحني بتأجيل هذه المصارحة إلى ما بعد الخطبة حتى تكون المشاعر قد ولدت بيننا وتعمقت فيتمسك بي ولايتخلى عني، واطعت ابي فيما ارادني له، وتمت الخطبة بناد كبير بعاصمة المحافظة التي نعيش بها، ودعونا للحفل كل الاقارب والاهل والاصدقاء.. وشعرت بفرحة طاغية وانا اجلس إلى جوار خطيبي في الحفل، واتقبل تهنئة الصديقات وسيدات الأسرة، واختلس النظر لخطيبي فأرى ابتسامته العريضة، وسعادته الظاهرة بي فأسعد بسعادته ثم يساورني بعض القلق من ان تتحول هذه الابتسامة العريضة ذات يوم إلى تجهم واكتئاب حين اصارحه بحالتي الصحية بعد الخطبة، لكني ادعو الله في سري ان يكتب ظنوني وان يحفظ على فرحتي ويحقق املي في الحياة السعيدة، وانتهى الحفل على خير مايرام، وخصص لي ابي شقة معقولة في العقار الذي يملكه، ويحجز به شقتين اخريين لشقيقي، وبدأ خطيبي يتصل بي تليفونيا، ويتردد عليّ في البيت، وتتبادل الاحاديث الجميلة واللفتات العاطفية الرقيقة وخاطري مازال مشغولا بالتساؤل عن اللحظة المناسبة لمصارحته بحقيقة الأمر، إلى ان استجمعت ارادتي بعد شهر من الخطبة وفاتحت خطيبي على استحياء في أمر مرضي، وأكدت له انه لاينقصني اي شيء كفتاة وان كل الاطباء قد اكدوا لي انني أستطيع ان أتزوج وانجب اطفالا كالاخريات، فوجئت بابتسامته العريضة تغيض وتنكمش ثم تتجمد ملامح وجهه على آثار الابتسامة الذابلة للحظات.. قبل ان تتحول فجأة إلى هبة الغضب والهياج والثورة، ويصفعني بالاتهام بان اسرتي قد خدعته وبانه غير مستعد لأن ينجب اطفالا مرضى بالسكر كلهم.

فتفجر - ولا أقول تذهر - دموعي كالطر واتهمد في مجلسي ذاهلة ومتهورة يشبه غائبة عن الوعي فلا اكاد أعي كيف انتهت الجلسة.. ولا كيف غادرنا المكان وتم فسخ الخطبة عقب ذلك على الفور، وساعدني ابي وامي وشقيقاي على اجتياز هذه المحنة بأقل الأضرار النفسية والصحية، وراح الجميع يقنعونني بان خطيبي السابق هذا لم يكن يستحقني الخ .. الى ان مضت الشهور إلى حوالوا، ومرت عليها عشرة شهور، ثم تقدم الي شاب آخر يعمل محاميا وراث فيه اسرتي خطيبا مناسبا لي، ورحبت انا ايضا به ورجوت أبي هذه المرة بالحاح شديد أن يسمح لي بأن لصارحه بحقيقة امري قبل اتمام الخطبة لكيلا يتكرر الموقف المحزن الذي واجهته من قبل لكنه تمسك برأيه الا افعل ذلك إلا بعد الخطبة من جديد، وكان منطقه في ذلك هو ان هذا الشاب يختلف تماما عن الخطيب السابق، وتمت الخطبة في حفل كبير أخرتكررت الفرحة المشوبة بالقلق والهواجس من جديد ، وانتهى حفل الخطبة والتجميع سعداء من اجلي، وابي وامي مشفقان عليّ من فرحتي الكبيرة بالارتباط الجديد، وانتظرت بعض الوقت لكي أفاتح خطيبي بالأمر الذي لايعرفه، وترقبت موعدا رأيته مناسبا لذلك .. وبدأت حديثي له وانا أدعو الله في اعماقي إلا تتكرر نفس المحنة السابقة مرة أخرى في حياتي .. وافتتحت كلامي معه بقولي ان لدي امرا هاما اريد ان اصارحه به لكي يعرف كل شيء عمن سوف يرتبط بها ثم حدثته بأمري بنفس الكلمات السابقة تقريبا، فاذا برد الفعل الأول يتكرر مرة أخرى بكل تفاصيله لكن مع اختلاف بسيط هذه المرة هو انني لم اتحمل تكراره مرتين فانهرت وبكيت في الفيبرة ونقلت إلى المستشفى ومكثت به عشرة ايام تحت العلاج إلى أن استردت عافيتي، وغادرته .. وقد تركت التجربة الثانية في نفسي آثارا أعمق مرارة من آثار التجربة الاولى.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد للأسف فلقد فوجئت بعد خروجي من المستشفى بشيء آخر ضاعف من الامي ومعاناتي النفسية هو نظرة الآخرين القاسية لي كفتاة فشلت في مشروعين للزواج خلال أقل من عام، ذلك أن أحدا خارج دائرة اسرتي الصغيرة المكونة من ابي وامي والشقيقين لايعرف انني مريضة بهذا المرض، ولايعرف بالتالي حقيقة السبب الذي دفع الخطيبين لفسخ الخطبة، ومادام الأمر كذلك فلابد ان كلا الخطيبين قد اكتشف من سلوكي مابدفعه للتخلي عني والنجاة بنفسه من الارتباط بي، فساءت حالتي النفسية والصحية كثيرا واعتزلت الناس ولم اعد اغادر بيتي إلا للضرورة القصوى، ولم اعد ايضا احتمل ما أنا فيه وابي وامي وشقيقاي حائرون ولايعرفون كيف يخففون عني احساسي المرير بالهوان والظلم والألم؟

إنني أرجو ألا تهون على حالي بقولك لي انني مازلت صغيرة السن فلقد انهيت دراستي منذ عامين وتزوجت معظم زميلاتي أو اوشكن على الزواج .. فماذا افعل مع اقداري ياسيدي وبماذا تنصحني؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

بعض مواقف الحياة المؤلمة، لايستطيع الانسان ان يلوم كثيرا احدا من أطرافها ولايستطيع في النهاية ان يتهم احدا سوى الظروف القاسية التي صنعتها وظلمت كل اطرافها معا او هيأت لبعضهم للأسف ان يؤذوا غيرهم اشد الألم!

ولاشك ان الموقف العصيب الذي واجهتيه في حياتك مرتين حتى الآن هو من هذه المواقف الثقيلة التي يتردد المرء كثيرا في لوم اطرافها، بغير ان يلتمس لكل منهم بعض العذر فيما فعل، وفيما اساء به إلى نفسه أو للآخرين عن غير قصد.

فأنت مثلا قد اردت لنفسك ماتريده كل فتاة لنفسها من سعادة مشروعة وسلكت إلى نيلها الطريق الصحيح.. وحقق قلبك بالأمل في ألا تحول ظروفك الصحية الذي لاذنب لك فيها دون نيلك لحقك المشروع في هذه السعادة الموجوة فاستجبت لنصيحة والدك الذي اسدلها اليك بقلب الأب المشفق على ابنته من اقدارها فاجلت المصارحة التي كان ينبغي لها ان تتم في طور المشاورات الأولية إلى مابعد اتمام الخطبة العلنية والحفل الكبير ابتهاجا بالارتباط الوشيك فكانت النتيجة الوخيمة في كلتا المرتين هي ان اعتبر الخطيب الذي تطلع هو الآخر إلى نصيبه العادل من السعادة، وسلك في طلبه لها الطرق المشروعة ، نفسه مجنيا عليه في القصة كلها.. وقد حجبت عنه بعض الحقائق الاساسية التي كان ينبغي له ان يعرفها جيدا قبل الارتباط العلني ليختار لنفسه الطريق الذي يمضي فيه على اساس من الحقيقة وليس من المشاعر او الحرج الانساني.

وكل منكم غير ملوم في بعض دوافعه لما فعل ولايلحق لنا ان نقسو عليه في اللوم حتى وان كان من حقنا ان نعتب على الخطيب الأول او الثاني عدم قدرته على ضبط انفعالاته في لحظة مواجهة الحقيقة، وعدم تماسكه في التصرف معك بما لايجرح مشاعرك على هذا النحو المؤلم او يشعرك بالذنب او النقص بشان امر لاحيلة لأحد فيه ، ولقد كان الأحرى بالخطيب في مثل هذا الموقف ان يكون اكثر فهما وادراكا للظروف الانسانية المحيطة بالقصة من البداية فينسحب في اراه الانسحاب ولكن بغير ان يؤذي مشاعرك على هذا النحو الدامي، وبغير ان يصخب عليك بالاتهام بخداعه، حتى ولو كانت الحقيقة قد حجبت عنه بالفعل قبل اتمام الخطبة، ففي هذه الظروف كان ينبغي له ان يخفف من غضبه وهياجه، ويدفعه للتنازل عن دعوى الخداع تقديرا لها، واشفاقا على ضحيتها وهو انت، واما والدك فلقد اعتب عليه هو ايضا نصيحته المشفقة لك بتاجيل المصارحة إلى مابعد الخطبة حتى وان تفهمت دوافعها المؤلمة لديه ورغبته المخلصة كأب في ان يضاعف من فرص ابنته في نيل السعادة وتخطى هذه العقبة التي تعترضها، فلقد فاته في غمار همه بأمر ابنته واشفاقه عليها من اقدارها، حق الطرف الآخر في ان يعرف الحقيقة عنها قبل الارتباط العلني بها ليكون اختياره لها ارادياً وليس حرجا من التخلي عنها بعد الخطبة لأسباب عاطفية او اجتماعية.

والافضل دائما هو ان نواجه الحقيقة بكل الامها مهما كانت قاسية وأن نبني حياتنا على اساس منها، فالحقيقة خير من اى زيف في النهاية، وهذا هو حالنا بكل وقائعه، لمن أرادنا على أساس منه فاهلا به ومرحبا، ومن لم يرغب فينا بسبب ذلك فلسوف تعوضنا الحياة عنه بمن هو خير منه... او بمن هو اقدر على اكتشاف ينابيع الحب والعطاء المكتومة في اعماقنا.. وننتظر من تتحقق من اجله، واذا كنت قد التمست لابيك بعض العذر في نصيحته المشفقة لك بتكتم المرض قبل اتمام الخطبة في المرة الاولى، فلقد عجزت بالفعل عن فهم دوافعه للتمسك بنفس هذه النصيحة المجربة في الخطبة الثانية، وقد كانت عواقبها عليك عند اختبارها في أرض الواقع العملي وخيمة، اذ تصورت انه لابد ان يكون قد استفاد من درس التجربة الاولى وفضل لك مكابدة الحقيقة بدلا من تكتمها او اخفائها بدلا من ان تتعرضي لمحنة المواجهة القاسية بتهمة الخداع بعد الارتباط العلني، وبعد التعلق من جانبك بالأمل في السعادة الوشيكة، ثم تتلقى صدمة الخذلان والفشل في النهاية. فتعذيب النفس بالأمل في السعادة القريبة لفترة من الزمن ثم انهياره هو اساسه اشد وطأة على المرء من التسليم منذ البداية بانحسار الأمل فيها.

ولست اقصد بذلك أبدا ان املك في الزواج والسعادة هو امل المحروم الذي يعذب نفسه بالأمل المستحيل وانما اقصد فقط انه خير لك أن تفقدي راغبا فيك وابتما في طور المشاورات الأولية بشأن الارتباط اذا صارحيته منذ البداية بكل شيء عنك، من ان تكابدي احساس الأمل المخالف فيه ثم تعلن خطبتك له في حفل كبير، وتتناوبك المشاعر المتضاربة بين الفرح بالارتباط به، والخوف من فقده ، وتكابدين بعد كل ذلك محنة مواجهته بقلب واجف يأمل في أن يكون وقع المواجهة عليه محققا لآمالك وليس مخيبا لها وهذا هو ما اقصده بتعذيب النفس بقرب بلوغ الأمل ثم العودة الحسيرة والمحرومة من شاطيء النهر بغير ان يرتوي القلب مما اشتد به العطش اليه وضاعف من احساسه بالظمأ «مخايلة» صفحة الماء الغرير لعينيه عن قرب قريب!

أما أنت فما اكثر من يسعدون بالارتباط بك على اساس من الحقيقة وحدها منذ البداية، وما اكثر من ينطلعون للفوز بفتاة وديعة وراضية باقدارها ولاتلوم احدا عليها مثلك، وكثيرات من هن في مثل ظروفك الصحية ويسعدن بحياتهن الزوجية واسرهن الصغيرة.. والصحة والمرض في النهاية من امر الله وحده جل شانه ولايجوز لنا ان نتعامل مع المرض كعار شخصي نتكتم امره عن الآخرين كانه سر حربي، اذ لا ذنب لأحد في مرضه ولأفضل لأحد في صحته، ولهذا فلست افهم سببا لفرض هذا الستار الكثيف من السرية التامة على حالتك الصحية خارج نطاق اسرتك الصغيرة.. حتى بسبب البعض تفسير فشل مشروعي زواجك لهذا السبب وحده، فاذا كانت النفس البشرية لاتسعد بالفعل بشيوع مرضها على الملأ فانه لاداعي في نفس الوقت للتخفي الشديد بالمرض عن الأهل على الأقل كانه امر يدعو للخجل والتكتم، ان من وسائل التعامل الصحيح مع المرض هو التعامل معه كحقيقة من حقائق الحياة العادية، التي تشير اليها الانسان في حديثه عرضا كما يشير إلى باقي شئون حياته فيتخلص بذلك من العبء النفسي للتكتم والتخفي والاحساس بالاختلاف عن الآخرين.

فاسعدي نفسك بنفسك يا انستي وبجدارتها بنيل السعادة ومنحها ايضا لمن سوف يشارك رحلة الحياة قريبا بإذن الله.

وتأكدي من أنك لم تكوني الخاسرة الوحيدة في فشل مشروعي الارتباط الاخيرين في حياتك، فلقد خسرك هذان الخطيبان كما خسرتيهما، ولعل خسارة كل منهما فيك اكبر كثيرا من خسارتك فيه، كما ان التجربة رغم قسوتها لم تخل ايضا من فائدة جانبية بالنسبة لك، فلقد عرفت على الأقل بدرس الألم ان المصارحة قبل الارتباط العلني أفضل واقوم لبناء الثقة ونجاح الارتباط القادم بإذن الله، وعرفت ايضا ان هذين الخطيبين السابقين لم يكونا يصلحان لك وان الصالح المنشود لك مازال يبحث عنك ولم يجد طريقه اليك بعد.

ونحن لانتعلم إلا من تجاربنا مع البشر مهما كانت قاسية ومؤلمة.

وابو القلاسفة سقراط يقول لنا: ان اشجار الريف ليس شيها ماتعلمني اياه.. لكن البشر هم وحدهم الذين اجد لديهم ما اتعلمه منهم واعلمهم اياه، فاذا كان ثمن درس التجربة باهظا بالنسبة لك فلاياس بذلك بالنسبة للاهداف الكبيرة تتطلب ايضا معاناة كبيرة للوصول إليها..

ولقد قدمت قريباتك من الألم كاملا لتنيل السعادة، ولسوف يكون نصيبك منها كاملا ايضا في القريب العاجل بإذن الله.